الفصل الأول
المبادئ العامة لعلم النفس التفاضلي

1-1- الشروط النظرية للطرق التربوية:

بشكل عام يمكن اعتبار علم النفس التفاضلي (وهي من الكلمة اللاتينية differentia - التمايز) كفرع من فروع علم النفس يبحث في التمايز الفردي والجماعي للناس.

يبدو من هذا التعريف تضمنه على تناقض ما. فإذا ما نسب إلى الاختلاف الفردي فالجماعي يصبح ثانياً.وإذا ما خطط الجماعي أولاً يصبح الفردي اقل أهمية بكثير. وبما أن الجماعة تتألف من الناس، وبدوره يمكن أن يمثل الشخص الفرد مجموعات مختلفة، فانه وبالعموم لا يمكن أن يكون للاختلافات الفردية والجماعية مفاهيم أساسية ذات مستوى واحد لمدخل علمي وحيد. لذلك في التجارب المحدودة تستخدم الوضعية الابتدائية نفسها. هكذا من الملاحظ وجود نزعة لوضع علامة المساواة ما بين علم النفس التفاضلي وبين علم نفس الاختلافات الفردية. من المعلوم بهذا الخصوص أن ف. شتيرن بالذات وعند إدخاله في عام 1990م إلى الدائرة المعرفية مصطلح ((علم النفس التفاضلي)) نشر العمل تحت اسم ((حول الاختلافات النفسية: الجوهر والمسائل والطرق لعلم النفس التفاضلي)). هو اعتبر أن الأبحاث يجب أن توجه قبل كل شيء ليس إلى الاختلاف ما بين الخواص الفردية وإنما إلى ((الخواص الشخصية)) المنفردة، التي يختلف بها الناس. لكن هذه الوضعية ليست الوحيدة. يحضر على وجه الخصوص، وبشكل متواصل، رأي ثابت مفاده، أن السلوك الفردي يكتسب خواصاً تتوافق مع صنف نفسي محدد للناس. هذه الأصناف تؤخذ كحقيقة أولية وكموضوع دراسة.

بماذا يمكن تفسير التناقض الداخلي لتعريف علم النفس التفاضلي؟ هل من الممكن غياب الأساس النظري بالكامل عنه ؟ هذا هام للتحقق، ذلك لأن النظرة إلى علم النفس التفاضلي تنحصر بشكل كامل كمادة علمية عملية تطبيقية وفي نهاية

obeikandl.com

الأمر إلى النفي الكامل لإمكانية الدراسة المنظمة و الممنهجة لسلوك الناس.
في مثل هذه الظروف، يعد ظهور علم النفس التفاضلي كعلم مستقل له مسائله الخاصة وطرقه المعتمدة،خطوة لا يكللها النجاح (هذا التأكيد ينطبق كلياً على رأي أ. ف. لازورسكي بما يخص نظرية الشخصية المطورة من قبله). لذلك يصبح مفهوماً ظهور الحاجة إلى أبحاث تخضع إلى شروط الطرق التربوية النظرية الخاصة بعلم النفس التفاضلي. يمكن الافتراض بأنها تقع ضمن فرع الأبحاث التقليدية للأسباب و الدوافع. بمقارنة وتعميم الطرق البحثية المختلفة، من المفيد لفت الانتباه إلى التفاسير الحاضرة لآليات النشاط الهادف للإنسان،أي ما يصنف وما يميز الشخص. حسب رأي أ.ن.ليونيف يعرف هذا التوجه كذلك ((كضرورة إفراغ التوتر)) في نظريات معينة، و((كمتطلبات في النشاط التركيبي الذي يقود إلى أهداف جديدة وغالية)) في غيرها (34، ص7). يعتبر ز.فرييز أحد ممثلي الاتجاه الأول والذي وفقاً له يخصص ((الجهاز النفسي)) من أجل تحقيق الحاجات والأهواء الداخلية. هو يبرز كمؤسس لنوعين من الأهواء: الجنسي والرغبة بالموت. باختلاطها في نسب مختلفة تشكل الرغبات الأساسية مجموعة تفرعات. يظهر فرويد في الشخصية ثلاثة تشكيلات: هو (المحايدة)، أنا، أنا العليا. تركز المتطلبات وطاقاتها في هو اللاإرادية والتي، بفضل علاقتها مع منظومة الإدراك، ترتب الظواهر الروحية حسب الزمن وتضعها تحت المراقبة الحقيقية. الأنا تريد أن تكون الواسطة مابين العالم وال هو حيث تريد أن تجعل هو مقبولا بالنسبة للعالم، وبقدراتها تزيد تحويل العالم إلى ما يوافق رغبات ال هو. تشابه ال أنا وبتأكيد التأثير على الرغبات ال هو، ذلك لأن الأنا جوهرياً هي عبارة عن جزء معدل للأخيرة. تنفذ الأنا العليا، أو الأنا المثالية، باعتبارها تجمَع للممنوعات والقواعد والأنظمة، ممثلة بالضمير، المراقبة الأخلاقية. يستشعر عدم التوافق ما بين متطلبات الضمير وأفعال الأنا كالإحساس بالذنب. تستقر الأحاسيس الجماعية على التطابق مع الناس الآخرين وذلك على قاعدة وحدة الأنا. بمستوى المرافعة يصف فرويد عملية توظيف الحالة النفسية على الشكل التالي ((يعطي القبول الداخلي الإحساس بالعمليات التي تجري

في مختلف طبقات الجهاز الروحي، وبدون شك في الأكثر عمقاً .إنها قليلة الشهرة، وأفضل نماذجها هي مجموعة "السعادة - عدم السعادة". وهي أكثر بدائية وبساطة من الإحساس الناشئ من الخارج، ويمكنها الظهور في حالة الوعي المبهم. تنحصر هذه الأحاسيس في أماكن مختلفة كالقبول الخارجي، حيث يمكن أن تنحدر من جوانب مختلفة بنفس الوقت، وتكتسب خلالها خواصاً مختلفة وحتى متناقضة. إن الأحاسيس التي يرافقها الشعور بالرضا لا تتضمن في ذاتها أية محفزات للتأثير، وعلى العكس تمتلك أحاسيس عدم الرضا هذه الصفات بدرجة عالية . هي تحفز على التغيير وعلى القيام بالحركة، لذلك نحن ندرس عدم الرضا كحالة رافعة للطاقة، أما الرضا فحالة مخفضة)) (55، ص191) .

إن مصادر النشاط الإنساني، كما يراها ممثلو الاتجاه الثاني للطرق التربوية النظرية، تخدم ليس المتطلبات الداخلية وإنما النشاط نفسه كشكل لوجود الكائن الحي. لقد أكد ج.اوستن أن ما يعتبر دليلاً ((فقط وجود تيار سلوك موسع بشكل دائم)) (53، ص191). تتواجد العمليات قليلة العدد المتولد استثنائياً كأشكال التصنيف والنشاط اللغوترمي. والأهم من كل شيء أن العمليات الشرطية حديثة التشكل، تبنى دائماً وبشكل مباشر على أسس العمليات المتولدة. يحدد اتجاه العمليات عن طريق الوسط الخارجي.

حسب اوستن يبدأ تشكل العلاقات المحدودة في حياة المولود مبكراً جداً. هذه العملية تعمل على تعقيد الفعل خلال مدة قصيرة، يستوعب الطفل في سن 2 -3 سنة آلاف العمليات التي تلقاها من محيطه الخارجي، إذ تتحول جميع هذه الروابط إلى تجارب. هذا يظهر كيف يزداد تعقيد الدوافع المؤثرة على التطور الحياتي.

لا يجد ج. اوستن المعطيات، التي قد تؤكد وجود أشكال وراثية للسلوك، وكذلك وجود مواهب وراثية (موسيقية، فنية... الخ). هو يعتبر عند توفر بعض الأفعال المرافقة للولادة، والتي تتشابه تقريباً عند كل الناس، وبتأثير من الوسط الخارجي والداخلي، يمكن توجيه تكوين أي طفل نحو المسار المحدد بقوة.

تتعلق العواطف السعيدة في أثناء تطورها مع طرائق السلوك الموصلة للنجاح بالتصادم

مع العالم المحيط، بمعنى القدرة على التكيف. يشكل إحساس السعادة (حسب الانطباع النفسي في ذلك الزمن) طرقاً عصبية أكثر مرورية مترافقة مع حالة التحريض الداخلية، هذا يعني أن التأثيرات الناجحة يجب أن تكون أكثر ترسيخاً ومن بعد ذلك أكثر إنتاجية. على هذا النحو لا تعتبر السعادة وغير السعادة حالات كلية يسعى إليها الجميع أو يتحاشونها لأجل أنفسهم. على الأصح هذه الحالات هي الشروط المقارنة والمؤثرة على اكتساب السلوك بطرق جديدة مما يؤدي لزيادة احتمال تكرار ظهور التأثيرات الإيجابية. في النتيجة يحصل أن الشخصية حسب تعريف غ. ساليفان هي ((نسبياً صورة ثابتة متكررة دورية لأوضاع ما بين الشخصيات والتي تميز الحياة الإنسانية)) (11، ص285).

يلاحظ وجود كلا الاتجاهين أيضاً في علم النفس الوطني: تشدد مجموعة من الباحثين على النشاط الموجه للإنسان ذو الطابع المادي الشخصية المادية، بينما غيرهم يبرز دور لحظات المرافعة في حتمية السلوك . هذا ما ينطبق صورياً على نظريات ب. غ . انانييف و أ. ن . ليونتيف.

يحضر من أجل جميع الناس حزمة عامة من الصفات النفسية الجامعة وكذلك في نظرية تطور الفردية ل ب.غ.انانييف، التي وفقاً لها، يتضمن سلوك الشخص بنية الإنسان مثل ((الفردية - الشخصية - ومجموعة المواهب)) (5، ص209). تتألف الصفات الفردية للشخص من الميزات الجنسية العمرية والفردية النموذجية، وتتوسع الصفات العمرية بشكل متتال في عملية التكون ونمو الفردية، بينما تظهر على شكل انحلال جنسي تتغير شدته مع امتداد العمر. تعمل الصفات النموذجية الفردية على تشكيل الخواص البنيوية (البنية الجسدية والفردية الكيميائية الحيوية) والخواص الحركية الخلوية للدماغ، والخواص الهندسية الوظائفية للأنصاف الكروية الدماغية (التناظر وعدم التناظر في العمل الوظيفي للوصفات المزدوجة والمؤثرات). تنحصر أولوية الصفات الفردية بتواجدها على كافة المستويات، من ضمنها الخلوية والجزيئية (مع استثناء بعض الخواص العصب - حركية والثنائية الجانبية). يعمل التأثير المتبادل للخواص الفردية الأولية على تحديد آلية الوظائف

النفسية الفيزيولوجية (الإثارية، التذكرية، التربوية النظرية... الخ) وتركيب الحاجات العضوية. هذه النواتج من الخواص الأولية تسمى بالثانوية. يظهر التكامل النفسي للخواص الذاتية الفردية بالخصوص في الطباع والمزاج. يعتبر علم النشوء الشكل الأساسي لتطور الخواص الفردية، المحدد بالتطور النوعي الطبيعي وبالبرنامج التطوري، ولكنه يعدل تحت تأثير العوامل الاجتماعية. لذلك يتم بمقياس انتشار مراحل التطور الوراثي تقوية عامل التغير الفردي الذي يرتبط مع التأثير الفعال للخواص الاجتماعية في الشخصية على خواص الفرد البنيوية ـ الحركية التي تعد مصدرها الوراثي)) (المرجع السابق، ص210). تعتبر لحظة البداية لخواص الشخصية هي عبارة عن وضعيتها في المجتمع (الاقتصادية، السياسية، الحقوقية، الإيديولوجية... الخ ضمن المجتمع)، وكذلك وضعيات العموم التي تكدست وتشكلت فيها الشخصية الحالية. وعلى أساس التموضع وضمن علاقات متبادلة دائمة، تبنى معها منظومات الدور الوظائفي العامية وكذلك الأهداف والتوجهات القيَمة. الوضع و الأدوار والإدراك تشكل جميعها الخواص الابتدائية وما ينتج عنها من الخواص الثانوية التي هي خواص الدوافعية للسلوك وتركيب السلوك العام. يشكل الأثر التكاملي للتأثير المتبادل مابين الخوص الشخصية الأولية والثانوية، نتيجة لهذا التبادل، شخصية هذا الإنسان وميوله. يعد الشكل الأساسي لتطور الخواص الشخصية للإنسان طريق حياته ضمن المجتمع وكذلك سيرته الاجتماعية التي ضمنها ((يتم تحديد لحظة البدء والنهاية للنشاط الأساسي في المجتمع ومراحل التطور الخلاق للشخصية وفترات الصعود والهبوط، والأحداث المهمة في الحياة الشخصية والنشاط، والترابط الشديد بين الأحداث المهمة في الحياة الشخصية والنشاط، والترابط الشديد مع الأحداث المهمة المعاصرة ومع التطور العام للبلد)) (6، ص71). يترتب الإشارة كذلك إلى الأهمية الكبرى في تحديد الصفات الشخصية والمزاج ورغبات الشخص وتغير حالته الأسرية، بالإضافة لوضعه ضمن محيطه القريب. الإنسان كموضوع نشاط غالباً ما يبحث كمادة عمل ومعرفة وتعارف. تتشكل بنية الشخص كموضوع نشاط من صفات محددة للفرد

والشخصية التي توافق وسائل ومادة النشاط. تتمثل المواصفات الأولية للشخص كموضوع بالوعي (كانعكاس للحقيقة الموضوعية) والنشاط (كإعادة تنظيم الحقائق). الشخص ((كموضوع نشاط عملي يتميز ليس فقط بصفاته الخاصة ولكن أيضاً بوسائط العمل التقنية، التي تبرز نوعها بتقوية وتسريع وإعادة تنظيم وظائفه. يتميز كموضوع للنشاط النظري في نفس المقياس بالمعارف والمقدرات المرتبطة باستعمال منظومات التأشير والتخصيص)) (5، ص210). وبحساب انه جرى عادة بحث الإبداع ((ليس فقط كشكل عال والأكثر نشاطاً وإنتاجاً لأنشطة الشخص والمشكلَة للحقيقة، ولكن كأنواعه الأساسية المعقدة وكذلك عمله، إضافة للمعرفة والتعارف)) (6، ص 75). هو يتعين بمثابة تكامل عال للخواص الموضوعية. أما الأثر الأكثر تعقيداً (ومعه المقدرات) فهو الموهبة والذكاء . يتمثل الشكل الأساسي لتطور الخواص الموضوعية بتاريخ النشاط الإنتاجي للشخص في المجتمع. يفهم من أنانييف أن الإنسان كالفردية هما ((كوحدة و علاقة تأثير متبادل لخواصه كالشخصية والقائم بالنشاط، التي في بنيتها توظف الخواص الطبيعية للإنسان كالفردية)). إن بداية الحالة الفردية يجدها الفرد ضمن خواصه الطبيعية الشاملة.

في الخصوص، من البداية تدخل التشكيلات المحفزة في تركيب عمليات القبول النفسي. عملية التحريض ((تعد عاملاً للتطور الفردي في أربعة اتجاهات: عضوي، معارفي، أخلاقي، جمالي. يتعلق الاتجاه العضوي بخدمة الانعكاسات الأساسية الحتمية في حماية المادة والوسط الداخلي، ووسائط الحماية ووظائف التكاثر والتوالد والانعكاسات في المحفزات العضوية الحية...إلخ. بفضل التطور التاريخي للمعرفة (في وحدة جوانبه الإحساسية والمنطقية)، تعد الحاجة إلى المعرفة والأساليب التي تتشكل هي بمساعدتها، واحدة من حاجات الفرد الأساسية الروحية: منها المحفزات المعرفية التي تؤثر على مستويات مختلفة من حياة الإنسان وخواصه الإدراكية. تعمل الدوافع الأخلاقية على إبراز حاجة الإنسان في الناس والعلاقات الاجتماعية. من المحتمل أن تبنى الدوافع الجماعية على أساس الدوافع الأخلاقية

والمعرفية، وهي عبارة عن الشكل الأكثر تعقيداً للإدراك كالتمتع بالخواص الجمالية للحقيقة الموضوعية)) (5، ص 194 -195).

يمكن على سبيل المثال للأسلوب المحدد في دراسة علم نفس الإنسان، عموماً موجود بين آراء أناني‌يف، تقديم أسلوب ((حالة الشخصية)) ل ك. ك بلاتونوف. هي تعتمد على الإدراك الذهني للتركيب الوظيفي الحركي للشخصية، الذي يفترض تغايراً في التركيب ودرجات اصطفاء أولية لعناصر علم نفس الإنسان. هذه العناصر الأولية تضم:

1. ظهور المقدرات.
2. السمات العامة للشخصية.
3. أساس التوجهات.
4. أساس الخبرة (المتطلبات الحرفية، الموسيقية، الإبداعية، والثقافة الأخرى للإنسان).
5. بنية الخواص الفردية للعمليات النفسية.
6. بنية الشروط الحيوية (المزاج، التغيرات المرضية).

كل عنصر يمتلك مجموعة صفات هي واحدة لجميع الناس، و قد تم تحديدها نتيجة لتحليل تفصيلي شمل 1500 مفهوماً متعلقاً بعلم نفس الإنسان. يعد العامل الأساسي في التفاصيل المحددة هو ((علاقتها الانتقائية التواجدية موضوعياً)) (42، ص 135)، التي من خلالها تظهر علاقة البنية الثالثة مع خواص البنية الرابعة، وكلاهما يتعلق بخواص الخامسة، والجميع متعلق بالبنية السادسة. وجد هذا الانتقاء على الأغلب عن طريق الوراثة. كل خاصة شخصية، ((التي تدخل في تعداد الخواص البنيوية الأربعة، يمكن ويجب اعتبارها كقدرة أولية أو كعنصر بنيوي للقدرات المركبة للنشاط المحدد (المرجع السابق، ص155). يعرف الطبع كجزء من البنية الشخصية، التي تضم فقط خطوط الشخصية المترابطة بشكل كاف ما بين بعضها البعض ككيان واحد، لكي تظهر بشكل دائم بأشكال متعددة للنشاط. بهذا الشكل، يشكل الطبع والقدرات بنيات ذات مستوى عالٍ بمساعدة

obeikandi.com

التجارب يمكن تقدير الخواص البارزة والناتجة لشخص محدد بمقياس ذو 5 درجات (الملحق 1). تحتل مقولة النشاط مكاناً مركزياً في شروحات عالم النفس ا.ن. ليونتيف. يقدم النشاط كعملية، بينما يتولد الانعكاس النفسي للعالم في رأس الإنسان، بمعنى يحدث تحول في الانعكاس الزمني، ومن جهة أخرى كعملية يقود نفسه فيها الانعكاس النفسي. الصورة الذاتية للعالم الخارجي ((يوجد منتج لنشاط الذات في هذا العالم)) (33، ص65). تفسر آلية سلوك الإنسان على الشكل التالي: ((القضية في أن لا درجة التقرب للمتطلبات الحياتية ولا درجة الدوافعية والفاعلية الوراثية تستطيع، هذه الدوافع جميعها، تكوين علاقات الانتقاء فيما بينها. تحدد هذه العلاقات بالارتباطات المتراكمة لنشاط الذات، لذلك تعد المعرفة نسبية)) (33، ص203). النشاط، كما يفهم نفسياً، هو النشاط العلمي الحسي الناتج عن إقدام الإنسان على إجراء تماس عملي مع مواد العالم المحيط، يجرب مقاومتها ويؤثر عليها بتطويع خواصها الذاتية. حسب ليونتيف النشاط هو واحدة وجود الإنسان.

تكمن الصفة الأساسية للنشاط في ماديته. المادية هي عبارة عن الشروط الموضوعية لعلم النفس. يفرض انعكاس الأعضاء الحسية للأجسام في العالم المحيط تأثيراً نشيطاً عليها من جانب الذات. تفرّق المادة، وهي المهمة، ما بين نشاط وآخر وهي تحفّز النشاط، بمعنى تشكّل دافعه. يعتبر العنصر الأساسي في كل نشاط هو المنفّذ لتأثيره. التأثير هو العملية المطوعة بتخيل تلك النتيجة التي يجب أن تحقق، وهو النتاج الذي من الواجب الحصول عليه، بمعنى العملية ذات الهدف المدرك. يتحقق النشاط العملي في الأعمال والنشاط الكتابي –في الأفعال الكتابية والنشاط أللعبي - في اللعب وهكذا دواليك. إذا ما كان النشاط يخضع للدوافع فإن الفعل هو أهداف قد لا تتطابق مع الدوافع. هكذا، فعند تحقيق الحاجة المعيشية يمكن أن يقوم الإنسان بأفعال قد لا تكون موجهة بشكل مباشر للحصول على الطعام، مثل تصنيع سلاح الصيد والعمل من أجل الحصول على مكافأة مادية بهدف اختراع المنتجات وهكذا دواليك. عدا ذلك من المقبول في النشاط التأكيد على العمليات

obeikandl.com

التي يفهم منها طرق تنفيذ الأفعال. إذا لم يخضع هدف الفعل للتبديل، بينما تتبدل شروط تحقيقه، فإنه يتغير أيضاً التركيب العملياتي للفعل. وبشكل مشابه لكيفية ارتباط مفهوم الدوافع مع مفهوم النشاط، ومفهوم الهدف مع مفهوم الفعل، كذلك يرتبط مفهوم العملية مع مفهوم الشروط.

تعرف علاقة محفزات النشاط مع الهدف المباشر للفعل عند الإنسان على شكل فكرة شخصية. بهذا الشكل تعمل العلاقة ما بين المحفزات والهدف وما بين المحفزات المتنوعة ومنظومة الأفكار الشخصية على تشكيل الوعي عند الإنسان وكذلك تشكل الشخصية. هنا تظهر الوظيفة المشكلة للأفكار المحفزة. يفرض تشكيل الشخصية تطوير عملية التعلم الهادف وبالتالي تطوير فعل الإنسان. يزداد الفعل غناً كلما توسعت دائرة الأنشطة التي تحققها، وذلك بوقوعها في صدام مع مولدات محفزاتها. في النتيجة يحدث انزياح للمحفزات نحو الهدف و تبدل درجات الانتقاء و تولد محفزات جديدة و أشكال جديدة للنشاط.

يفرض تأسيس المكون المادي للنشاط على شكل ميزة متقدمة إبراز نشاط عملي حسي خارجي، كالأساس المشكل للنشاط الداخلي الذي يتضمن بالخصوص الأفعال النفسية والعمليات. يتحقق هذا بواسطة التداخلية الداخلية، التي في نتيجتها تتحول العمليات الخارجية والأفعال مع الأشياء المادية الخارجية إلى عمليات سلوكية متخصصة بالانتقال والتعميم و الاختصار، وهو ما يهيء قدراتها لإبعاد النشاط الخارجي المحدود. لكن في العموم يحافظ النشاط الخارجي والداخلي على بنية واحدة.

تصبح الشخصية في مركز اهتمام علم نفس الإنسان لدى ليونتييف ((كتشكيل نفساني جديد، الذي يتكون من العلاقات الحياتية للفرد نتيجة لتحول نشاطاته)). تبرز ثلاثة معايير أساسية للشخصية: السعة، حجم علاقة الإنسان مع العالم، درجة الترقي لهذه العلاقات وبنيتها العامة. السعة، يتميز الإنسان، الذي تحيط حياته دائرة واسعة من النشاط المتنوع والدوافع المشكلة للأفكار، بغنى في العلاقات. عندئذٍ تظهر عملية الاصطفاء كعملية تطويع العلاقات وكدرجة ترقي للنشاطات

ودوافعها ، التي يمكن أن تكون درجة متنوعة جداً ، بغض النظر عن ضيق أو اتساع أساس الشخصية المشكلة من قبل علاقاتها مع المحيط. انطلاقاً من الوضعية التي لا يمكن فيها بقاء خط الحياة عند الإنسان وحيداً ، تحدد البنية العامة لعلاقات الشخصية بتناسب خطوط الدوافع الرئيسية لنشاط الإنسان، وكأنها مشكلّة ((التخصص السيكولوجي)) العام للشخصية. انطلاقاً من وضعية أن اكتساب الخبرات النظرية أثناء عملية التفاعل مع الوسط يشكل منظومة الأفكار الشخصية ، ج. كيلي كانت أيضاً قد اقترحت أسلوب إظهار مثل هذه التركيبات الشخصية. هذا الأسلوب يحمل اسم ((الشبكة متعددة الأدوار)) (ملحق 2). يمكن أيضاً اقتراح المدخل المماثل ل ليونتييف كواسطة تعلم علم النفس عند الإنسان. من المستحسن إجراء تحليل تمايزي لأساليب تفريغ التوتر والنشاط التركيبي على قاعدة المقارنة بين صفاتها العمومية (الجدول 1 ، 1).

تقدم هذه الوضعيات لمختلف النظريات الأسس لضم أفكار ز.فرويد وب.غ أنانيف وك.ك بلاتونوف إلى طرق تفريغ التوتر، أما أفكار ج أوتسنو أ. ن ليونتييف و ج. كيلي -فلطرق النشاط التركيبي.

obeikandl.com

جدول 1 -1 -الخواص المميزة للطرق المختلفة بالنسبة إلى النشاط الهادف للإنسان.

العلامات المقارنة	الطرق	
	تفريغ التوتر	النشاط البناء
هدف النشاط	تفريغ توتر الحاجات المتوفرة الغير ملباة منذ البدء .	سلفاً غير محددة، تتشكل كنتيجة لمسيرة الحياة . انجاز القدرات الشخصية
بناء آلية السلوك لتأمين النشاط	تتألف من عدة كتل تركيبية وخواص الشخصية المنفذة لعدة وظائف : طاقية، وظائف التوجه، عملياتية...الخ	منذ البدء يتوفر فقط النشاط التوسعي لأجل المراحل الأولية للتطور على شكل تفاعلات متولدة .على أثرها تنشأ المنظومات الوظيفية الحركية على قاعدة الشروط المتشكلة للعلاقات والعادات
الحركية في العمل الوظيفي للآلية النفسية	في التأثير المتبادل لمختلف البنيات تحقق الوظائف الطاقية والتوجيهية الحاجات الداخلية . من المفترض وعند تحقيق أي من الحاجات الملحة أن تتوفر دائماً عدة إمكانيات . تتكون الأشكال الجديدة للنشاط كتثبيت لأفضل طرق تلبية الحاجات الأساسية . يتحقق السلوك الهادف عن طريق مطابقة الواقع بنفس الوقت بحاجة واحدة	يتوجه النشاط عن طريق الوسط الخارجي، أما الذات فيحقق على الأغلب الوظيفة الطاقية . يجري تكوين أشكال جديدة للسلوك بشكل مستقل دون التعلق بالتكوينات السابقة . يحدث التأثير المتبادل مع الوسط في كل لحظة زمنية على كافة الاتجاهات الممكنة، يحددها فقط الإمكانيات الطاقية للذات

obeikandl.com

في النتيجة يمكن الوصول إلى الخلاصات التالية. هكذا، ففي الطريقة التي تفسر النشاط الموجه لتفريغ توتر مجموع الحاجات الأولية، الموجودة منذ البدء والمتماثلة لجميع الناس، تعد أولوية العموم والمساواة (للقياس الصرف التعليلي في لوعي العلمي). الطريقة الأخرى تبين قدرة تنوع عوامل الوسط الموجبة لتطوير الإنسان المفرد على تشكيل المظهر الفردي غير المكرر، الذي يدرس كمادة تعليمية نفسية (القياس التخطيطي الذاتي). بمقارنة خواص كلا الطريقتين يظهر الحدث نفسه للتكوين الطويل الموازي لهما أنه أولاً: باعتبارها مماثلة لشرح خواص نفسية كثيرة فهي غير قادرة إفرادياً بكامل القيمة على احتواء جميع مشاكل الدوافع وعلم نفس الشخصية، وثانياً مع قوة توفر الاختلافات المبدئية، لا يمكن أن يتحدوا آلياً في مسلك تقاربي واحد ما. ولكن فيما عدا دراسة حصرية التفاسير النظرية المتوفرة لجميع الحالات المتنوعة لسلوك الإنسان، من الواجب توجيه الانتباه إلى وجود تناقضات متماثلة أثناء معالجة التشريعات النفسية الهامة والظاهرة أثناء التجريب من موقع إحدى الطرق، على وجه الخصوص في تماثل طريقة تفريغ التوتر.

2-1- الشروط التجاربية والبراغماتية لإبراز الإشكاليات النفسية التفاضلية

يظهر عادةً السعي إلى التماثل، المميز لطريقة إفراغ التوتر، خصوصاً في الإظهار المقبول في تركيب عقلية الإنسان بمثابة عناصره الأساسية للعمليات النفسية، والحالات النفسية والخواص النفسية. لذلك من المفيد دراسة أمثلة على الأبحاث التجريبية لهذه الظواهر.

بالتطرق إلى العمليات النفسية الإدراكية يترتب توجيه الانتباه إلى القانون النفسي-الفيزيولوجي الأساسي المتعلق بتعلم الاختلاف التباييني لعتبة الإحساس، التي تفهم كاختلاف دقيق بين المؤثرين، اللذين يخرج عنهما شعور بالكاد يمكن ملاحظته. كما هو معلوم يتعلق مقدار عتبة التباين (DR) بمقدار المؤثر الابتدائي (R). من أجل الشعور بالاختلافات العرضية المتنوعة، وعن طريق التجارب التي قام بها كل من ب.بوغير وإي.فيبر تم تحديد (DR/R) - كمقدار ثابت. في الخصوص من أجل

الإحساس البصري هذا المقدار يساوي 0.01، وللسمعي 0.1 ومن أجل اللمسي 0.3. بالاستناد إلى هذه النتائج استخرج غ. فيخنر القانون النفسي - الفيزيائي الأساسي(قانون فيبر - فيخنر)، الذي حسبه يتناسب مقدار الشعور طرداً مع لوغاريتم مقدار المؤثر بمعنى:

$$S = K \log R$$

حيث: S – شدة الإحساس

R -قوة المؤثر في واحدات قياس العتبة المطلقة الدنيا

k– مقدار ثابت يتعلق بالشعور العرضي.

ترسيمياً هذه العلاقة معكوسة في الشكل1-1

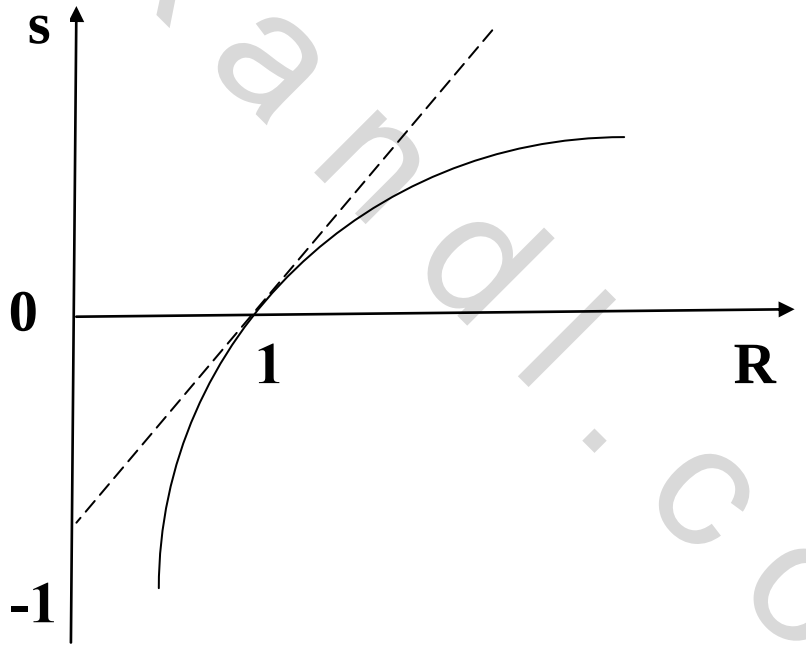

الشكل 1 -1. النسبة بين شدة الإحساس (S) والشدة الناتجة عن المؤثر (R) حسب قانون فيبر – فيخنر

لقد استخدم س. ستيفنس من أجل حساب العلاقة ما بين الإحساس والمؤثر المحرض

obeikandi.com

له المعطيات التجاربية المدرجة مباشرة عندما اقترح على المختبر مباشرة تحديد المقدار الكمي للتغير الحاصل في شدة الإحساس. في هذا الحالة افترضت عملية التدريج الحاجة لتذكر شدة الإحساس الأولية من قبل المختبر بالمقارنة مع التي يجري تقديمها للإحساس الحيوي، بمعنى يجب أن يكون نمط الإحساس الذي يعمل عليه المختبر متشكلاً بالكامل وإلا لن يستطيع تقدير مقدار الإحساس ومن ثم بناء علاقة بسيطة أثناء العمليات الجارية مع النمط. في النتيجة تم الإقرار بأن ((المقدار الذاتي يزداد كما الوظيفة الرزينة وذلك من شدة المؤثر)) وبالتالي:

$$S = KR^n$$

حيث S ـ شدة الإحساس، R ـ مقدار التأثير و n ـ مؤشر يتعلق تغيره بالاختلاف العرضي للإحساس (فهو للضجيج يساوي 0.6 وللسطوع 0.33 وللتأثير الالكتروني 3.5)، k ـ ثابت التناسب يتعلق بواحدات القياس المختارة. بيانياً تظهر العلاقة السابقة باستخدام نوعين من الخطوط المنحنية بالنسبة إلى مقدار المؤشر n (الشكل1 -2).

تسمح الاختلافات المشار إليها في تنظيم الأبحاث التجاربية والتي وصفت قانون فيبر فيخنر و ستيفن بالافتراض، أنه تم بحث آليات نفسية متنوعة والتي تؤمن نشاط الانعكاس وآليات السلوك المختلفة. لذلك يمكن أن تكون تفاضلياً متماثلة من أجل أنواع نفسية مختلفة للناس. هذا ما تؤكده بطريقة غير مباشرة المعطيات عن وجود أناس ذوي نزعات إما رافعة وإما مخفضة للمحسوس.

في الخصوص تظهر ((المخفضات)) مقاومة أقل قدرة على تحمل الكآبة الحسية، يدل على ذلك عدم ثباتها تحت تأثير الوسط الذي تنخفض فيه عملية التحفيز الحسية لأقل قيمة. بشكل مطابق هذا ما يحصل في تناسب فيبر -فيخنر، فعندما تكون R>1 تكون S دائماً أقل من R (الشكل 1 -1)

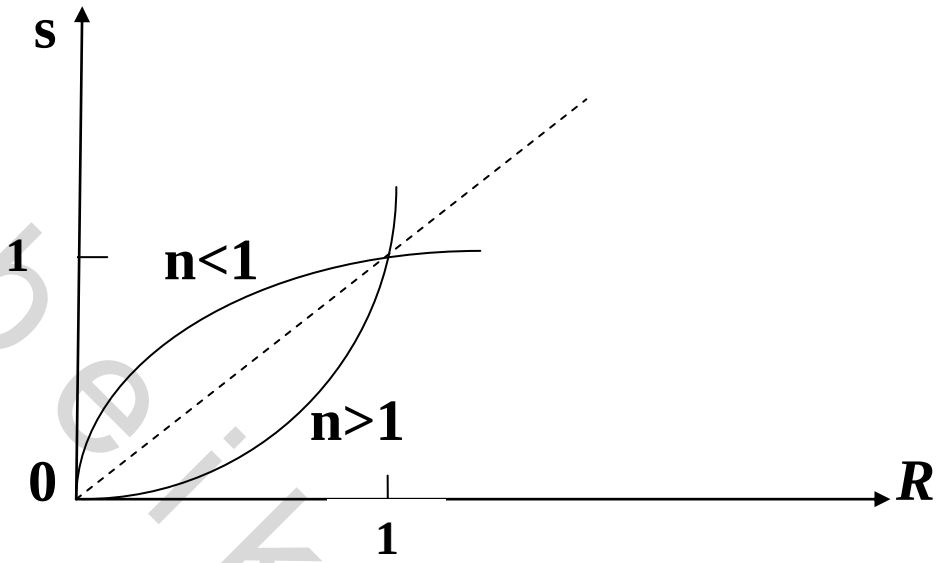

الشكل1 -2 -النسبة ما بين شدة الإحساس (S) والناتجة من مؤثرها R حسب قانون ستيفنس

تتحقق الوظيفة المنظمة للحالة النفسية في تأثيرها على نشاط العمل المنفذ. إن العلاقة بين مستوى الدوافع عند الإنسان ونشاط الأعمال المنفذة تجاربياً عن طريق قانون ييركس -دودسون. حسب هذا القانون يتبدل ارتفاع فعالية النشاط مع ازدياد الدوافعية للمنفذ إلى اتجاه معاكس بعد الوصول إلى مستوى محدد للتوتر الدوافعي الشكل(1 -3).

openkanal.com

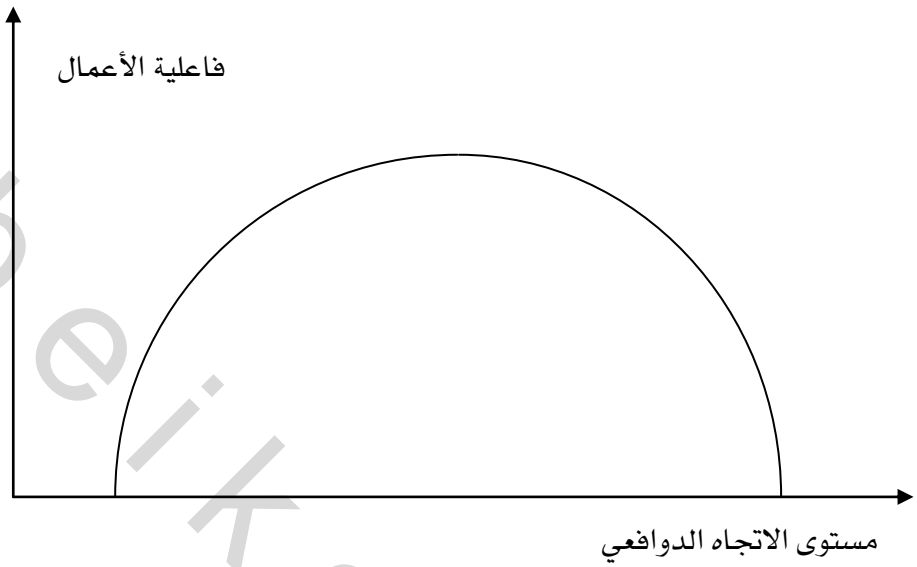

الشكل 1 -3 -العلاقة ما بين فعالية النشاط المنفذ ومستوى الدوافعية للمنفذ (قانون ييركس -دودسون)

الذي يحصل، أن لكل نوع من النشاط العملي يتوفر دوافعه الطموحة تقريباً لكل منفذ. من أجل الوصول إلى أقصى الفعالية يجب على العامل التمسك بمستوى محدد (ليس الأعظمي) للتوتر بشكل مستمر وعلى كامل فترة عمله. ولكن تم إظهار، على أساس الأبحاث التجريبية، أنه يمكن على كامل العمل المنفذ بسرعة، تقسيمها إلى مراحل: العمل الإنشائي، قدرة العمل التفاؤلية، التعويض الكامل للتعب الطارئ الذي لا يظهر في انخفاض القدرات الإنتاجية، التعويض غير المستقر عند حدوث انخفاض في الإنتاجية، المقطع النهائي المتولد في زيادة النشاط الإنتاجي قبل انتهاء العمل. الأطوار السابقة تمثل بيانياً في (الشكل1- 4).

يلفت المقطع النهائي نحوه انتباه خاص، حيث تم الوصول إليه عن طريق ارتفاع كيفي للدوافعية في المرحلة النهائية للعمل. هذا الحدث يعاكس إلى درجة ما قانون ييركس - دودسون إذا ما تم حساب أن العامل يتجه نحو أعلى نشاط عملي، الذي من المفترض أن يكون هو المستوى المستقر للدوافعية . بمعنى يجب أن لا يحافظ على احتياطات دوافعية قادرة على رفع إنتاجية العمل. ينشأ المقطع النهائي بشكل طبيعي

obeikandi.com

كالساعي بسرعة إلى التخلص من العمل مسبباً لنفسه علاقة سلبية من قبل العامل.

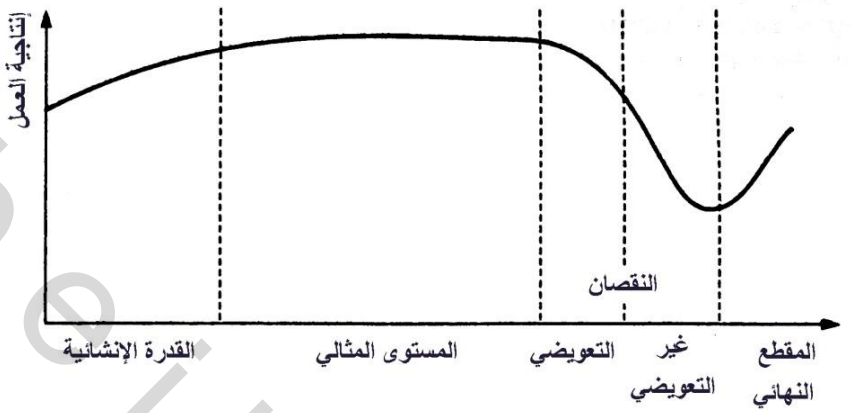

الشكل 1 -4 -منحنى العمل

بهذا الشكل يمكن تقسيم الناس حسب علاقاتهم المتنوعة أكانت إيجابية أم سلبية بالنسبة للنشاط المنفذ. هذا التنوع يمكن تطبيقه على تصنيف الناس حسب الخواص النفسية، التي يرتبط دائماً إعدادها باسم ج. اتكينسون. وفقا لها يفضل الأشخاص الساعون للحصول على النجاح، أي الذين ينتظم سلوكهم في درجة محددة بانفعالات ايجابية، العمل بمستوى متوسط من الصعوبة، الذي يحمل نتيجة كافية عند وجود احتمال عالي لنجاحه (الخط العريض للمنحني في الشكل 1 -5)

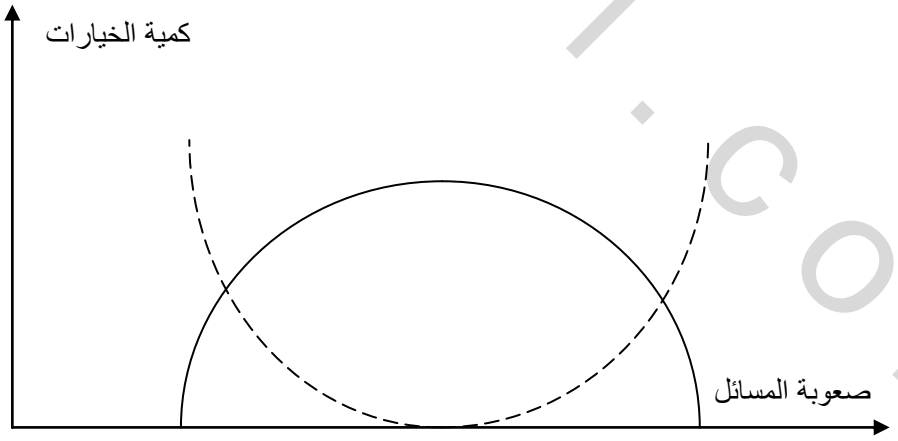

الشكل1 -5 -اختيار الفارق المعطى لنشاط الناس مع السعي للحصول على النجاح (الخط المتواصل) وهروب الفشل (الخط المقطع)

obeikandi.com

ينتقي الأشخاص الذين يتهربون من الفشل والذين يدل على سلوكهم في المقام الأول انفعالاتهم السلبية، على الأغلب عملاً سهلاً من المستبعد عملياً عدم تحقيقه وكذلك عملاً صعباً الذي من المتوقع فشله لذلك لا يسبب أية مشاعر سلبية عن حدوثه (الخط المتقطع للمنحني في الشكل 1- 5). يخيل أن انتقاء الناس للعمل الأكثر صعوبة، وهو ما يمكن تفسيره أيضاً بسعيهم للتخلص من الحالة السلبية الناتجة عن النشاط نفسه (في هذه الحالة المهام التجريبية) كالعمل السابق .عندها يصبح تنفيذ العمل الصعب لمرة دون تكرار أكثر فائدة من تكرار العمل السهل الذي يعطي النتيجة نفسها. في هذه الحالة يمكن تفسير الحدث الحاصل في المقطع النهائي، الملاحظ في حينه عند تنفيذ العمل في الحرص بسرعة على إنجاز الإجراء القليل الفائدة للناس، الذين في الغالب يتماشى مع السعي للتخلص من السيئ.

بهذا الشكل يمكن الوصول إلى خلاصة عن وجود ما تم حصوله تجريبياً، إن كان على مستوى العمليات والحالات النفسية أو كان على مستوى الصفات النفسية، من أسس الشك في التصور عن التماثل المبدأي للبنية النفسية عند مختلف الناس والمميزة لطريقة إفراغ التوتر. كما لاحظت أ. انستازي، ((نتائج علم النفس العام محققة على نفس المجموعات المختلفة، أحياناً تبدو غير عامة تماماً)) (7ص6). في هذه الحالة يصبح ضرورياً تقسيم الناس بأقل ما يمكن إلى عدد محدود من أنواع علم النفس. من جهة أخرى إذا تم الاعتراف بالمسلك البنيوي للنشاط كالأكثر تماثلاً من أجل فهم السلوك النفسي للإنسان، المقترح للحالات النفسية، الابتدائية الشاذة لكل شخص والاختلاف المبدئي بين الناس في اتجاهات تطوره والخواص التكيفية مع البيئة المتغيرة، فإنه تنشأ مجموعة من المشكلات العملية الهامة. إنها مشكلات وضع المعارف النفسية في الأعمال اليومية عند غياب اي من التوصيات والمقترحات المعممة، مثل تصميم الآليات والصلاحية المهنية والتطابقية ما بين الأشخاص.... الخ، لذلك أصبح من المفيد توحيد الناس ضمن تصانيف نفسية محددة حسب قواعد تجريدية ما. وهو ما يضع الشروط البراغماتية لإظهار مشكلات المحتوى النفسي التفاضلي. بالتالي يمكن دسترة الشروط البراغماتية التي توفرت أكان عن طريق

obeikandi.com

القواعد التجاربية أم عن طريق الأهمية العملية لإظهار علم النفس التفاضلي على شكل قسم مستقل من علم النفس نظرياً و عملياً.

1-3- الوسط المادي والطرق التربوية الأساسية لعلم النفس التفاضلي:

يسمح تعميم النظريات المتنوعة والملخصات بالوصول لنتيجة حول وجود اتجاهين مستقلين نسبياً، التي تعمل على دراسة أكثر الصفات النفسية تعميماً للإنسان وكذلك دراسة الشخصية. يظهر أحد الاتجاهين دور الخواص((الأولية)) والتأسيسية والفردية في تنظيم وتطوير الشخصية، أما الآخر فيدرس هذه الخواص كوضعية اصطفافية تتعلق بمقدار بسيط في المستويات (العليا) لتنظيم الشخصية. في الحالة الأولى تخرج من الوحدات إلى جميع أسس التطور النفسي، في الثانية تفرض فرديته الابتدائية لكل واحد. ولكن يوجد قواعد نظرية وتجاربية وعملية في سياق الطريقة الأولى من أجل تقسيم جميع الناس إلى عدة أنواع أولية نفسية، أما في سياق الثانية، فمن أجل توحيدهم ضمن مجموعات محددة على حساب الأكثر منها عامة مثل الرياضية والقانونية.

لذلك يدخل في المجال المادي لعلم النفس التفاضلي للإنسان بشكل طبيعي دراسة وإنشاء التصنيفات النفسية، التي لا يضعف الاهتمام بها لآلاف من السنين، يتعلق ذلك بتوفر أعداد ضخمة.

في وسط هذه الأعداد يمكن إظهار التصنيفات النفسية العامة المبنية على الخواص النفسية العامة للشخصية (المزاجية، الكفاءة، التوجه... الخ). و التصنيفات النفسية التطبيقية المنشأة ضمن أفرع منفصلة من علم النفس و في الأساس فقط هي المستخدمة.

يمكن تسمية الأسلوب الخاص بالطرق التربوية الذي يتعلق بإصدار التصنيفات النفسية التطبيقية والعامة بالتصنيفي. تعتبر الوضعية الابتدائية لهذا الأسلوب هي فرضية وجود الصنف النفسي كحقيقة أولية. حسب هذه الوضعية يدخل كل شخص منذ ضمانه هذا أو ذاك التصنيف النفسي (من الممكن إلى العديد مباشرة)، وهو ما يحدد بشكل قطعي خواصه النفسية وسلوكه.

obeikandl.com

يمكن اعتبار الوسيلة الأهم لجمع المعلومات التجريبية من أجل التقارب التصنيفي هي طريقة إظهار المجموعات المتباينة، التي تفرض إبراز مجموعات منفصلة من الناس حسب الدلالة الانتقائية الواصلة أحياناً إلى المستوى النفسي المرضي للإفراز. ينعكس مثل هذا الانتماء للشخص إلى نوع محدد على تقييمه الذاتي، وقدرته في إثبات هويته. هذه الحال في الخصوص أصبحت قاعدة لوجود الرأي الذي تمسك به، على سبيل المثال، ك. يونغ و ك. ليونغرد حول عدم القدرة في استخدام طرق الاستجواب من أجل تحديد النوع النفسي. في النتيجة لأجل هذا الهدف حصل انتشار لوضع تصور حول السلوك المميز لممثلي هذا أو ذاك النوع. هذه التصورات تؤدي عملها وكأنها المقياس، الذي يسمح من الجانب حسب أفعال وتأثيرات الإنسان، أن ينجز إثبات الهوية. بالعودة إلى طرق الاستجواب في البحث النفسي يجب إعارة الانتباه إلى ما يسمى بالاستجواب - الاختباري، على سبيل المثال الوارد في ملحق ((الاستمارة التمهيدية)) وملحق ((المستجوب الاستكشافي التفاضلي)). تحتوي مثل هذه الطرق في العادة على حزمة من الوضعيات الممكنة التي تميز الأنواع المختلفة من علم النفس، والذي يمكن أن يقع فيها المختبر. بانتقائه هذه أو تلك الوضعية يستعرض المختبر بدوره انطباعاته النفسية. بمعرفة اختياره يعرف المختبر نفسه، وبنفس الوقت إلى أي نوع من علم النفس ينتمي. عندها وعلى قاعدة الأساليب المستخدمة لمثل هذا الاتجاه في تحقيق طرق التصنيف النفسي، يمكن تسميته بالتصنيفي ـ التشخيصي، وفي حال استخدام أنواع علم النفس التصويري يسمى بالتصنيفي ـ البياني.

بالانتقال إلى دراسة أسلوب مناهجي آخر وهو الذي يدعو إلى توحيد الناس المختلفين فيما بينهم ضمن مجموعة محددة عن طريق قواعد قانونية تجريدية لا على التعيين، من الملائم ذكر رأي أ. أنستازي الذي يشرح هذا الأسلوب: ((حتى في الحديث الاعتيادي غالباً يتمايز الناس كأغبياء أو أذكياء وكذلك كانفعاليين أو هادئين. يدل قياس أية ميزة نفسية على أن درجة ظهورها عند مختلف الأفراد هي عبارة عن مقياس متواصل. يمكن رسمها في أغلب الحالات بواسطة منحني التوزع الطبيعي الذي يقع فيه الحد الأقصى في المركز، ثم ينحدر باستمرار نحو الأطراف)). يسمح

استخدام القواعد الرياضية، من أجل توحيد الخواص الفردية المختلفة، بإطلاق تسمية على مثل هذا الأسلوب من علم النفس التفاضلي هي العروضي - الفردي. يسمح استخدام قانون التوزيع الطبيعي المستند رياضياً قياس إظهارية العامل التقييمي أو الخاصة التقييمية بواحدات الانحراف القياسية، بمعنى نتيجة لتعيين المعطيات التجريبية الحاصلة. لذلك يمكن تسمية اتجاه أسلوب العروضي - الفردي المرتبط بتحديد المعدلات الإحصائية لتغيير أي كان من المعاملات والخواص النفسية المنفردة، بالمعياري. لقد أثبت فعاليته وخاصة عند حل المسائل ذات الاختيار المهني وكذلك في التطبيقات العلاجية.

يمكن تسمية الاتجاه الآخر للأسلوب العروضي - الفردي بالعواملية - التلازمية وذلك لعلاقتها باستخدام التحليل العواملي لنتائج الأبحاث النفسية. نتيجة لاستخدام التحليل العواملي ظهرت النماذج العواملية - التلازمية للشخصية.

من المفهوم أن الأسلوب العروضي - الفردي يتعلق بقدر ما بتصحيح ما ينتج عن تحقيق القياسات النفسية التشخيصية، هذا ما يضع حدوداً معينة إلى التشخيص النفسي. هكذا و مع حساب فرضية الطريقة الفردية ـ العروضية يجب أن يجري تقييم نتائج الأبحاث النفسية - التشخيصية انطلاقاً من التوزع الطبيعي للقياسات. كما هو معلوم في التشخيص النفسي، ليس كل الطرق موجهة بنفس الشكل. من أجل حل مسائل علم النفس التفاضلي تبين عدم جدوى الطرق، التي بواسطتها يجري قياس الخواص النفسية عند الإنسان بدون المقارنة مع المؤشرات المماثلة لأشخاص آخرين. ينسب لهذه الطرق الاختبارات القياسية ـ التوجهية والطرق التصحيحية والطرق الشخصية متعددة الأدوار والتي تستخدم في أبحاث مجالات الدلالة الكلامية ـ الفردية. بالتحديد يمكن أن تنسب لهذه المقولات من الطرق، طريقة ((خارطة الشخصية)) وطريقة ((الشبكات متعددة الأدوار)) (ملحق رقم 1و2). وبالتالي يمكن ضمن مجال علم النفس التفاضلي، وكجزء مستقل، فرز قسم علم النفس التشخيصي - التفاضلي. بتحديد المجال المادي لعلم النفس التفاضلي، أصبح ممنوعا تخطي مشكلة دراسة الخواص النفسية لتصنيف الناس الغير نفسي. لقد تم

وضع هذه التصانيف والتخصيصات حسب التنوع الجنسي والعمري والانتماء الوراثي وخواص النشاط المهني والانتماء الطبقي.... الخ. يوجد العديد من الآراء حول ضرورة إدخال هذه المشكلة إلى مادة علم النفس التفاضلي، ذلك لأن حلها الملائم ممكن ضمن إطارات علم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس العمري وعلم نفس الوراثي وعلم نفس العمل وعلم النفس السياسي.... الخ. ولكن إذا ما تمت دراسة الخواص النفسية، ليس من وضعية شروطها ذات المدلول الواحد بعوامل غير نفسية ما، إنما من وضعية وجود إمكانية لإزالة هذه المدلولية الواحدة، فأنه يتوجب عند ذلك إظهار التشريعات العامة من اجل تنظيم الخواص النفسية للتصانيف الغير نفسية المتنوعة. في هذه الحالة يصبح من الضروري حل المشكلة المطروحة عن طريق علم النفس التفاضلي. أن التوجه إلى مشكلة إبعاد التابعية الشديدة لخواص الإنسان النفسية عن طريق القوانين الحيوية والاجتماعية، يطرح مشكلة حول المضمون النفسي لعملية تفرده. عندما تعطى الأسبقية في حتمية التطور النفسي للعامل الحيوي، فإن التفرد يفسر كانحراف الإنسان أثناء سير حياته عن الانتماء النوعي المتأثر بتماثله مع الآخرين. إذا ما تم الانطلاق من الحالات الفردية الأولية النفسية لكل شخص، فإنه يتوجب حساب إمكانية الحالة التوحدية للمجتمع والمعايير العامة المطبقة على الفرد. عندها يمكن النظر إلى الفردية كتخلص إدراكي وإرادي من مثل هذا التوحد، وعودة الإنسان إلى حالته الابتدائية.

في جميع الأحوال تعالج التفردية كتباين شخص محدد عن الآخرين، بينما يمكن تسمية الأسلوب المنهجي المرتبط بدراستها، بالعملية التفردية.

يستخدم من اجل دراسة أسباب تشكل الخواص التمييزية للشخص المفرد، والتي تفرقه عن الباقين، وذلك ضمن علم النفس التفاضلي بشكل مماثل الأسلوب الحيوي - بياني. عند دراسة الشروط النفسية لشخص محدد من اجل تأمين التأثير ذو التوجه الهادف المترتب عليه مع أهداف علاجية نفسية، وجد الاتجاه الشخصي للأبحاث طريقاً للاستخدام. عدا ذلك ومن اجل حل مشكلة الترابط بيت العوامل الوراثية والعوامل البيئية، أو بمصطلح أخر حتمية الحيوية والاجتماعية للانفرادية

الإنسانية في علم النفس التفاضلي، تستخدم طرق علم النفس الوراثي. على هذا الشكل ينظم المخطط التالي للبيئة المادية في علم النفس التفاضلي. يجري استخدام أربعة أساليب مناهجية: التصنيفي، الفردي ـ العروضي، دراسة الظواهر النفسية للتصانيف والخصائص الغير نفسية، التفردي. حسب العلاقة بالطرق المستخدمة في الأسلوب التصنيفي تبرز الاتجاهات التصنيفية البيانية والتصنيفية ـ المعارفية، وفي العروضي ـ الفردي تبرز الاتجاهات المعيارية والعواملية ـ التبادلية. وعلى أسس أخرى متعددة تبرز في الأسلوب التفردي عملية التشخيص واتجاه علم النفس الوراثي. ولكن إلى إي حد يتطابق التصنيف الوارد مع أراء أخرى موجودة حول مادة علم النفس التفاضلي ؟

في عام 1896م نشر الباحثان: أ. بيني و ب. هنري مقالة تحت عنوان ((السيكيولوجيا الفردية)) التي شكلت أول تحليل منتظم لأهداف مادة وطرق علم النفس التفاضلي.

هما كتبا: ((نحن سنبدأ مناقشة مادة جديدة معقدة وعملياً لم يتم بحثها)).

وكأمثلة على المشكلات الرئيسية لعلم النفس التفاضلي قدم الباحثان اثنتين: في الأولى دراسة الطبيعة ودرجة التفاوت الفردي ضمن العمليات النفسية، وفي الثانية اكتشاف العلاقة المتبادلة للعمليات النفسية الخاصة بالفرد، التي تعطي إمكانية تصنيف الصفات و إمكانية تحديد أي الوظائف هي الأساسية.

بإدخال مفهوم ((علم النفس التفاضلي))، دعم ذلك ف. شتيرن (1900م) عندما جاء على ذكر الوعي الإعتيادي حيث تقف فيه تسمية ((علم النفس الفردي)) و((علم النفس التفردي)) بمواجهة ((علم النفس الاجتماعي)) و((علم نفس الشعوب)). بينما علم النفس التفاضلي ((يجب أن يحتوي على مادته ليس فقط الاختلافات مابين الفردية، وإنما الاختلافات مابين الشعوب، بالفئة والجنس والعمر..... إلخ، باختصار على كامل دائرة مشكلات التباين)) (58، ص12). حسب شتيرن، علم النفس التفاضلي ((في مقدمة ما يجب بحثه هو تلك القانونية الشكلية التي تحدد حقيقة التنوع النفسي. يحتاج مصطلح التكيف النفسي إلى تعريف أدق: يتوجب إتمام

المحتوى بمفهوم التغيير ومؤشر التكيف والغدر، وكذلك بحث أشكال التغير والأنواع والدرجات، ومن ثم بدقة تحديد الجوهر الطبيعي والشبه طبيعي والسوبر طبيعي. يتطلب مثل هذا البحث عن الدلائل العامة مفهوماً للعلاقة التبادلية، التي تعني العلاقة مابين عدة أنواع من النماذج، والتي تقود إلى تحديد البنية نفسها للفردية. ولقد اكتسب السؤال حول السببية زاوية نظر خاصة: يتوجب السؤال عن طبيعة الدور في نشوء الاختلافات النفسية، فمن جهة لأسباب داخلية (الوراثة، القابلية)، ومن جهة أخرى خارجية (تأثير العالم المحيط، التربية.... الخ). في النهاية تقود دراسة ذلك، إلى أي درجة خارجية يمكن اعتبار الظواهر النفسية علامات تمييز للخواص النفسية الفطرية، نحو تأسيس العلم العروضي التفاضلي)) (58، ص12). بغض النظر عن سعة طيف المشكلات الصاعدة لعلم النفس التفاضلي، مع ذلك يمكن ملاحظة قيام شتيرن وكذلك بيتي وهنري بإعطاء أهمية خاصة إلى اتجاه دراسة الطبيعة الفردية والعملية التفردية. ولكن في مقابل هذه الوضعية يمكن إعطاء رأي أخر يعود إلى احد مؤسسي علم النفس التفاضلي ألا وهو أ. ف. لازورسكي حيث يعتبر أن الخواص الشخصية أو الانحرافات تشكل المادة الأساسية في دراسة علم النفس الفردي ((الذي يستخدم هذه المادة للحصول على هدفه الرئيسي وهو التصوير الدقيق وتصنيف الطباع البشرية)). لقد احتفظ الاختلاف في الأولويات عند تحديد البيئة المادية لعلم النفس باستمراريته. وهكذا بالنسبة إلى أ. انستازي ((تعد كذلك الأبحاث المادية والكمية في الاختلافات الفردية للسلوك مادة لعلم النفس التفاضلي)).

ما هي طبيعة هذه الاختلافات وكم هي ضخمة؟ ماذا يمكن القول عن أسبابها؟ كيف يؤثر عليها التحضير والتطور والحالة البدائية للأفراد ؟ بأي شكل تتعلق الصفات المتنوعة بين بعضها البعض وكيف تتواجد ؟ ما يحصل انه في المقام الأول يجب قياس الاختلافات الفردية، ومن ثم وضع العوامل المحددة لها. عدا ذلك وحسب أ. انستازي، يعنى بعلم النفس التباين من قبل تحليل الطبيعة وخواص غالبية المجموعات الشعبية من الناس الهامشية والوراثية، والتي تتنوع حسب علائم الجنس

والعرق والأممية والثقافة.

ولكن اللهجة بالذات يمكن أن تنتمي إلى ظهور أسباب الاختلافات ما بين الأفراد وتطور الفردية. على سبيل المثال: ((يعتبر تحديد مصادر التغير الفردي النفسي هو المشكلة المركزية لعلم النفس التفاضلي. من المعروف أن الاختلافات الفردية تنشأ عن التأثيرات المتبادلة المتعددة والمعقدة ما بين الأجيال والبيئة)). أو ((يضع علم النفس التفاضلي ـ وهو ما يميزه عن مجالات المعرفة الأخرى حول الإنسان ـ هدفه ليس فقط معرفة الخواص الفردية على أساس تنظيم المشاهدات الحياتية عن طريق استخدام الطرق الفنية والإحصائية استثنائياً في التحليل، وإنما الدراسة العلمية لآليات وضع وتطوير الفردية الإنسانية كحالة شاذة بالكامل تدخل ضمن مجال الحقائق الفاعلة والمفعولة)). عند ذلك تكتسب طرق علم النفسي الوراثي أهمية كبرى من أجل إظهار أسباب الاختلافات الفردية. تضم في تعدادها عادة:

- طريق السلسلة النسبية المعتمدة على المقارنة مابين الناس المختلفين بدرجة نسبهم.
- طريقة التوأمة (مقارنة مابين التوائم المتشابهة التي لها نفس الصفات الوراثية، والشبه متماثلة الذين يتشاركون بنفس المورثات تقريباً، وكذلك بين الأشقاء إي الأولاد من أبوين مشتركين)
- تقتضي دراسة الأطفال المقبولين إجراء مقارنة خواصهم مع الخواص البيولوجية لأبويهم المقبولين. عندما يتم إظهار مشكلة وضع الحالات النفسية الشاذة للإنسان كمشكلة مركزية في علم النفس التفاضلي، يتبين الاستخدام الذكي لمبادئ الطريقة الجماعية لأبحاث فردية الإنسان في دراسة ((الاختلافات النفسية الفردية كمجموعة كاملة للخواص)).

في هذه الحالة جرت العادة على اعتبار اللحظة الابتدائية في دراسة الفردية هي حالة الفرد والشذوذ الفردي كاقتران فريد لجميع العلائم المميزة لأحد الأشخاص عن غيره. لقد سمى ف. س. ميرلين الميزات الكاملة للخواص الفردية للإنسان كعملية فردية تكاملية، ذات خاصة ينتج عنها بشكل شاذ وفردي طبيعة العلاقة مابين جميع خواص الإنسان بدءاً من الخواص الكيميا - حيوية وانتهاءً بالحالة الاجتماعية

للشخص في المجتمع.

بتعميم أعماله في علم النفس التفاضلي أبرز أ. ب. ليبن أقسامه التالية (حسب مستوى الأهمية): (((1) مجال الاختلافات الفردية، (2) مجال اختلافات الطرق المنهجية، (3) مجال الاختلافات الكبيرة)). هنا يفهم من الاختلافات الكبيرة بمواصفات الناس من وجهة نظر العمر والجنس، الواقعة ضمن عرق محدد وعادات ثقافية واحدة.

بنسب هذه الوضعيات والإسنادات المشغولة على غيرها من أعمال حاصلة على اعتراف بها مع التصنيفات المقترحة في الأعلى للطرق المناهجية لعلم النفس التفاضلي، يمكن الوصول لاستنتاج حول عدم وجود تناقض هام فيما بينها. وهكذا تعتبر الفوارق النفسية الفردية والجماعية عند الناس هي مادة علم النفس التفاضلي. ينسب إلى الطرق التصنيفية لعلم النفس التفاضلي طريقة إظهار المجموعات المتباينة وطرق التشخيص النفسي التفاضلي. إن توفر المادة المخصصة للدراسة والطرق التصنيفية المخصصة يسمح باعتبار علم النفس التفاضلي جزءا مستقلاً من علم النفس العلمي.

opelkandl.com